أساليب التفكير :

التفكير الفلسفي

للأستاذ عبد المنعم عبد العزيز الميلجي

فرضى التعريف :

مودتنا كتب الفلسفة التي تقدم لعامة القراء أن تطالعنا في السطور الأولى بمعنى كلمة فلسفة فتردد إنها كلمة من أصل يوناني مركبة من « فيلو » أي حب و « صوفيا » أي الحكمة ، وتنتهي من ذلك إلى أن الفلسفة معناها « محبة الحكمة » . ثم تمضي لتؤكد في جرأة أن أول من استعمل الكلمة للدلالة على علوم الفلسفة عالم يوناني من أعلام الرياضة والفلك والموسيقى، فيثاغورس الذي توفي في القرن الخامس قبل الميلاد ؛ إذ قال : « لست حكيما ، فالحكمة لا يتصف بها غير الآلهة وما أنا إلا محب للحكمة » . تردد الكتب ذلك القول مع أنه لم يثبت بالدليل التاريخي الباتّ أن فيثاغورس أول من استعمل كلمة فلسفة بمعنى اصطلاحي ، فالمؤرخ « هيرودوت » يذكر أن « كريزوس » قال « لصولون » إنه سمع أن صولون قد جاب كثيراً من الأقطار يتفلسف ، وأن الذي دفعه إلى ذلك رغبته في المعرفة[1] .

ولذلك يحق لنا أن نرجح أن هيرودوت أول من استعملها للدلالة على علم من العلوم ، أو — على الأقل — أن نشك في نسبتها إلى فيثاغورس .

وعودنا جمهور المثقفين أن يتساءل عن معنى الفلسفة ، ويتطلب تعريفاً جامعاً مانعاً لها في كلمات قلائل، ولما كان موضوع الفلسفة غير واضح المعالم ، غير محدود الأفق ، ولما كانت المعرفة الفلسفية متشعبة الأطراف ، متنوعة الاتجاهات حتى ليستحيل أن تفضي إلى نتائج ثابتة نهائية شأن العلوم المختلفة ، لما كان الأمر كذلك تعذر تعريف الفلسفة على اعتبار أنها لون من ألوان التفكير البشري ، أو فرع من فروع المعرفة الإنسانية .

وإذا كان الفلاسفة قد تصدوا لتعريفها فإن تعريفاً واحداً من تعريفاتهم لم ينج من النقد فضلا عن التقريع ، حتى ليتعذر علينا أن نجد فيلسوفين يتفقان على تعريف واحد . سر ذلك أن كل فيلسوف إذ يتصدى للتعريف إنما يكون واقعاً تحت تأثير فلسفته الخاصة فيكون التعريف الذي ينتهي إليه مجرد عبارة قصيرة توجز

(١) (المدخل إلى الفلسفة) تأليف كوليه وترجمة أستاذنا الدكتور أبو العلا عفيفي .

الكتاب كاملا ولوجد له نصاً ثانياً يساعده كثيراً على التحقيق . والظاهر أنه لم يعثر عليه في دار الكتب المصرية وفي مكتبات مصر .

وقد أشار المجلسي في كتابه إلى وجود زيادات في كتاب صفين لم ترد في كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد . وقد استفاد المجلسي وهو عالم محقق واسع الاطلاع من نسخة قديمة لكتاب وقعة صفين . كما استعان بكتب أخرى من هذه الوقعة مثل « كتاب صفين » لإبراهيم بن ديزيل الهمداني الذي من رواته « حبة العرني » وهو من رواة نصر بن مزاحم . وكذلك سيف ابن عمر الضبي الكوفي المتوفى سنة ١٨٠ للهجرة الراوية الشهير صاحب الكتب في الردة والفتوح والجمل ومسير عائشة وعلي . وقد نقل عن الصعب بن حكيم بن شريك بن عبدة الكوفي .

ومثل كتاب شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني وغير ذلك .

وقد سبق لعالم آخر أن اعتمد على كتاب « صفين » فأخذ منه شيئاً حذفت منه الأسانيد هو الشيخ السيد محسن الأمين من علماء الشام أدخله في كتابه « أعيان الشيعة » في الجزء الخاص بالإمام علي المطبوع سنة ١٣٥٤ للهجرة والظاهر أن الأستاذ لم يقف عليه .

هذه ملاحظات بسيطة دفعني على تدوينها موضوعي الذي اشتغل فيه في الوقت الحاضر عن « مصادر تاريخ الطبري » لا تنقص من قيمة الكتاب سجلتها رغبة مني في التنقيب لأن العلم بحر لا يحاط به مهما أوتي الإنسان من علم . أرجو من القارئ ألا يسيء ظنه في قيمة التحقيق والإخراج .

(بغداد) جواد علي

فلسفته ، وتركز مذهبه .

أفلاطون ، مثلا ، يصف الفيلسوف بأنه شخص غايته معرفة الأمور الأزلية ، أو الوصول إلى حقائق الأشياء ، أو الارتقاء من العلم بشئون حياتنا الوهمية إلى إدراك مسائل الحياة الأزلية . وهو يصدر فى ذلك عن نظرية عرف بها ، نظرية المثل أو المثل ، التى ترى العالم المحسوس الذى نحيا فيه حياتنا الراهنة عالم أشباح زائلة ، لحقائق أزلية أبدية لا تحس وإن لم يكن من المستحيل إدراكها إن اصطنعنا التأمل العقلى الخالص من أوهام الحس والبدن . فيصبح العلم بأمور هذا العالم تافهاً ، فى حين يصبح العلم الحق هو الإحاطة بعالم الحقائق الأزلية الروحية ، وما ذلك العلم غير الفلسفة . بل تراه يقول : « الفيلسوف الحق هو ذلك الذى يسعى إلى انتزاع الروح من الجسد » (١) ألا يلخص ذلك القول نظريته فى العلاقة بين الروح والجسد التى ترى الإنسان لا مركبا من روح وجسم ، بل تراه روحاً حلت عرضاً فى جسد هو سجن لها ينبغى أن تتحرر منه ؟

وشيشيرون ، الخطيب الرومانى ، ينافح عن الفلسفة الرواقية التى تدين بالفضيلة غاية للحياة ، وترى السعادة فى الخضوع لمحتوم القضاء ، والإذعان للقدر ، والابتسام للخطوب ، والرضا بواقع الأمور . ذلك أن الأمور ليست فوضى إنما هى وفق إرادة عليا خيرة عاقلة ، ثم هى فضلا عن ذلك منبثة فى أرجاء الكون ، حالة فى جنباته . حتى لتصبح السعادة شأناً من شئون النفس لا يتوقف على الظروف الخارجية ، ولا يرتهن باعتدال الأمور أو تقلب الأحوال ، إنما هى طوع أمرك إن ارتضيت حكم الإرادة الكلية ، وازدريت اللذات الجسدية . ينافح شيشيرون عن الفلسفة الرواقية هذه ، فهل نعجب حين نذكر فى معرض الحديث عن الفلسفة : « أيتها الفلسفة ! أنت المدبرة لحياتنا : أنت صديق الفضيلة وعدو الرذيلة ، ماذا تكون حياة الإنسان لولاك ؟! » أو حين يضع حدود المعرفة الفلسفية بقوله : « إن الفلسفة هى العلم بأفضل الأشياء ، والقدرة على الانتفاع به بكل وسيلة ممكنة » .

إن شيشيرون بقوله هذا لم يعرف الفلسفة بقدر ما عرفنا وجهة نظره الخاصة .

(١) (فيدون) من محاورات أفلاطون .

وأرسطو ، المعلم الأول ، يقسم الفلسفة إلى فروع عدة جميعها حكمة بيد أن « ما وراء الطبيعة » أحق تلك الفروع باسم الحكمة وهو يسمى علم ما وراء الطبيعة « الفلسفة الأولى » فى مقابلة « الفلسفة الثانية » ويعنى بها العلم الطبيعى . ويعرف الفلسفة الأولى بأنها العلم الإلهى الذى يبحث فى الله ، المحرك الأول ، مسبب الأسباب وعلة العلل ، ذلك أن دراسة الله عبارة عن دراسة الموجود من حيث هو كذلك ، فضلا عن أن الطبيعة الحقة للوجود تتجلى فيما هو دائم لا فيما هو زائل .

وإليك مثل من الشرق العربى ، عالم مسلم مشبوب العاطفة الدينية ، ذلك هو الجرجانى ، يطل التعريفات ، يعرف الفلسفة بأنها « التشبه بالإله بحسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية » . فيأتى تعريفه خير معبر عن نزعته الفكرية فكيف ننتظر منه أن يكون تعريفاً للفلسفة فى ذاتها ؟!

وإذا كان معنى الفلسفة يختلف من فرد إلى آخر فهو يختلف كذلك من عصر إلى آخر . كان فى القرون الوسطى العلم الذى يصل إليه العقل بطريق النظر الفكرى المجرد فى مقابلة العلم الإلهى الذى يصل إليه الإنسان بطريق الوحى .

وهكذا صار معنى الفلسفة العلم العقلى المنظم . وفى العصور الحديثة تدل كلمة فلسفة على مجموعة العلوم النظرية التى تستند إلى النظر العقلى المجرد فى مقابلة مجموعة العلوم المستندة إلى الملاحظة والتجربة .

تأمل بعض التعريفات التى تذكر الفلسفة وتزدرى الفلاسفة بطائفة غير من المتعلمين الحرفيين فى تدينهم ، يصدرون فى تعريفهم لها عن نهيب من العقل وخشية على إيمانهم السطحى من عمق التأمل العقلى ، أو يتفكه بها قوم من المازحين الجهلاء يصدرون فى تعريفهم لها عن العداء لما يجهلون : فمن تعريف لها بالكفر والزندقة ، إلى القول بأنها تعقيد البسيط ، إلى اتهامها بتهمة الترثرة والقدرة على الحديث حين ينبغى وحين لا ينبغى ، أو قوة الحجة فى مجال الحق أو مجال الباطل على حد سواء .

فقد اتضح إذن بعد هذا العرض السريع أن لا سبيل إلى الوقوف على حقيقة الفلسفة من تعريفاتها ، كما أنه لا سبيل إلى حقيقة المرء من بطاقته ، أو الكتاب من عنوانه . وإن تم التعريف

من أمر ما ، فمن أتباع صاحب العقل أو نظريته الفلسفية أو شعوره نحو النهج الفلسفي منكراً كان أو مؤيداً .

المنهج الفلسفي .

إن تعريف الفلسفة قد يوهم القارئ أنها مجرد علم من العلوم ، ابتدأه أو ابتدعه ذلك النفر من الحكماء ، وتعاون على إقامته وتطوره أجيال الفلاسفة ؛ في حين أن الحقيقة التي تخفى على الكثيرين من طلاب الفلسفة المبتدئين ، أن الفلسفة أسلوب من أساليب التفكير البشري ، وناحية من نواحي النشاط الفكري . فالإنسان المنطوي على طلب المعرفة ، المطبوع على تفسير الظواهر ، المتلهف على تلمس العلل والأسباب والغايات كما ينهج النهج الخرافي في تفكيره ، قادر إذا ما بلغ طوراً من التقدم العقلي أرقى ، وإذا ما تهيأت له ظروف مادية خاصة ، على أن ينهج نهجاً فلسفياً . بل إن بذور التفكير الفلسفي لتبرز في طفولة المرء وفي طفولة البشرية . وقد انتهيت في مقال سابق من الرسالة[1] بعد استعراض أمثلة من الشرق القديم إلى أن الخرافة أو الأسطورة وإن كانت تطبع التفكير الشرقي القديم ، فإن الفلسفة كانت تطل برأسها بين الفينة والفينة ، وفي ذلك المحيط من ظلام الفكر حيث تتراقص المردة والأشباح والشياطين التي تراها عين الخيال وتذكيها العاطفة والهوى ، كانت تنبثق أحياناً بروق فلسفية ومحاولات لتفسير الأمور تفسيراً عقلياً ، فتتغالب الأشباح وتبدد الخرافات إلى حين .

وأضيف إلى ذلك أن الفلسفة كثيراً ما كانت تبلغ الأوج دون أن تبدد الأشباح تبديداً تاماً . وكثيراً ما ألمت بها نكسات لا يزال التاريخ يذكرها فقد أعقب العصر الذهبي للفلسفة اليونانية إبان القرنين الثالث والرابع قبل الميلاد ذبول هو ارتداد إلى الفكر الشرقي القديم من حيث الامتزاج بالدين والاقتصار على مباحث الأخلاق والميل إلى التصوف ، وما التصوف في حقيقة الأمر إلا نوع من الإعراض عن العلم العقلي الذي يستند إلى الدليل والبرهان ، والاكتفاء باليقين القلبي والإيمان . وفي عام ٥٢٩ بعد الميلاد أغلق الامبراطور يوستنيانوس مدارس الفلسفة في أثينا ، وكانت قد أقفرت من التلاميذ ، وتناقص عدد العلماء فيها ونعد الفكر الفلسفي في اليونان ليذكر في الشرق ، في ربوع فارس حيث كسرى أنوشروان ، صديق الفلسفة الذي فتح ذراعيه للنازحين من ربوع الاضطهاد الفكري .

(البقية في العدد القادم) عبد المنعم عبد العزيز الملجمي

(١) التفكير الخرافي في العدد ٨١٠ من الرسالة .

إعلان

تعلن وزارة المعارف العمومية بمناسبة تغيير مناهج اللغة العربية بالمدارس الابتدائية أنها بحاجة إلى كتابين في قواعد اللغة العربية أحدهما للسنة الثالثة والثاني للسنة الرابعة يراعى فيهما أن يكونا مطابقين للمنهج والتوجيهات التي وضعت أمامه ويمكن الحصول عليها من إدارة التوريدات بالوزارة وآخر موعد لتقديم هذه الكتب لإدارة تقرير الكتب المدرسية بوزارة المعارف العمومية هو آخر سبتمبر سنة ١٩٤٩ ، وستنظر الوزارة في اختيار أصلح هذه الكتب لجنة تختارها الوزارة ليس من بين أعضائها أحد من المؤلفين ، ويصح أن تختار اللجنة أكثر من كتاب ، كما أن لها أن تختار أي كتاب صالح في هذا الموضوع ولو لم يتقدم مؤلفه للمسابقة ، وما يقرر اختياره تشتري الوزارة حق تأليفه وطبعه لمدارسها وللمدارس الحرة لمدة ثلاث سنوات ، وذلك نظير مكافأة قدرها ٢٠٠ جنيه (مائتا جنيه) عن كتاب السنة الثالثة و ٢٥٠ جنيها (مائتان وخمسون جنيها) عن كتاب السنة الرابعة . ١٤٨٨